عن الدفاع المشترك مع بوليساريو.. هل يرتكب الجنرلات الخطيئة الكبرى؟

عبد الفتاح نعوم

فلنهب أن الجزائر قادرة على أن تدخل في اتفاق دفاع مشترك بينها وبين جبهة البوليساريو، على الأقل كما يُشيع ذلك بعض الأبواق المقربة من جنرالات المرادية وسدنتها، فإن أول ما يمكن قوله عن ذلك أنه يقع في صنف الحماقات السياسية التي تنزل بالدول إلى مستوى العصابات المشبوهة، وهو الامر الذي بقدر ما سيؤكد في حال حدوثه الترابط العضوي الوجودي الذي لطالما أكده المغرب بين الجبهة الانفصالية وبين الجزائر، فإنه سيؤكد أن جنرالات المرادية قد أتوا شيئا فريّا وبرهنوا على غباء منقطع النظير، لأنه حتى إيران التي هم متحالفون معها لم تفعل الشيء ذاته مع حزب الله وانصار الله والحشد الشعبي، وذلك برغم وقوفها خلفهم في كل حروبهم، بل إنها تنظر إليهم بعين الاستعمال، وتكتفي بتأييد مواقفهم وتحركاتهم، فكيف توقع الجزائر اتفاقية دفاع مشترك مع تنظيم تزعم على الدوام بأنها لا علاقة لها به ولا يربطها به سوى كونها اختارت أن تكون ملاحظا في خضم النزاع بينه وبين المغرب، باعتبار ما يحتمه عليها دستورها من دعم مزعوم لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها؟.

ومن ناحية ثانية، كيف يعقل ان تبرم دولة متمتعة باعتراف دولي، والمفروض أن تصرفاتها محاطة بالمسؤولية حيال المجموعة الدولية، اتفاقا مع عصابة ليس لديها أي اعتراف دولي، ولا تعترف لها الأمم المتحدة بأي صفة في النزاع المفتعل، لا هي ولا جمهوريتها المزعومة، ولا تتمتع بأي قابلية لتمثيل من تزعم أنها تمثلهم من المواطنين المغاربة في الاقاليم الجنوبية للمملكة الشريفة، ولا علاقة لها في القانون الدولي حتى بالمحتجزين، الذي لا يتمتعون في القانون الدولي بصفة لاجئين، بقدر ما تمنحهم هذه الصفة حرية الحركة والتصرف داخل كل تراب الدول المضيفة.

وبالمقابل ليس لدى تلك العصابات سوى مقعد بئيس في الاتحاد الافريقي وبضع اعترافات متناثرة ومتهالكة مشتراة بشكل لا مشروع، بمال الشعب الجزائري، وهما وضعان ملتبسان جاءا في لحظة ارتباك جيوسياسي ارخى بظله في بداية الثمانينيات على القارة السمراء ومنظمة وحدتها، بقدر الالتباس الذي رافق الابقاء على القضية الوطنية المغربية في ردهات اللجنة الرابعة، برغم تصفية الاستعمار الاسباني، والذي هو سياق المباغتة بنشوب حرب مفتعلة أجلت إجراءات خروج القضية من جدول اللجنة، ومن ثم أدت إلى تجميد الوضع ومعه تاريخ المنطقة المغاربية وتطلعات شعوبها.

وبصرف النظر عن تلك الأبعاد، فإن المشكلة التي ستواجه الجارة الشرقية، في حالة اقدامها على مثل هذه الحماقة، هي تلك الماثلة في كون أي تحرش للعصابات بالتراب المغربي، سيُعتبر من طرف الرباط عدوانا، الأكيد أن الرباط سترد عليه كما في حادثتي الكركارات والداه البندير، خصوصا وأن العصابات قد ابانت مرارا عن فشلها العسكري، ولم تربح معركة واحدة منذ العام 1975، وكل ما فعلته هو أنها نجحت في أن تكون شوكة في ضهر المغرب تستعملها الجارة الشرقية، لكن مشكلة الجنرالات تكمن في أن الرباط ستحتفظ دائما باستراتيجيتها القائمة على الرد على أي عدوان بعد إشهاد العالم عليه وداخل التراب الوطني، وبمنطق الدفاع الشرعي المرتكز على شرطيْ التناسب والآنية، ولن تنجر إلى أي رد خارج حدوده، ذلك أن الجنرالات ينتظرون من القوات المسلحة المغربية أن تلقي ولو بعقب سيجارة على أي شبر داخل التراب الجزائري كي تهرول إلى اعتباره عدوانا، حتى ولو تعلق الأمر بتعقب تلك القوات لعمليات عسكرية منظمة وتحت سقف اتفاق دفاع مشترك بين الجمهورية والعصابات.

يبدو لي إذن أن بصمات تدريبات حزب الله لمرتزقة بوليساريو قد بدأت تلوح في الأفق، فمعادلاته التي تقوم على حروب خاطفة تتبعها حرب إسرائيلية على التراب اللبناني، هي نفسها التي باتت تحاول العصابات افتعالها، وذلك بعدما فشلت كل أساليب غالي في قيادة الميليشيات التي تدور كلها حول مباغتة المغرب من بوابة الجغرافيا السياسية وتغيير وقائعها، سواء في المنطقة العازلة المنزوعة السلاح، او شرق الجدار العازل وبمحاذاته، لتصير التكتيكات الآنية هي محاولة جر القوات المغربية إلى معارك على الأراضي الجزائرية، لكن بمعادلة مقلوبة، حيث أنه كما هو مطلوب في لبنان أن يبقى الحزب خارج الدولة كي لا تحمل إسرائيل مسؤولية عملياته لحكومة بيروت، فإنه مطلوب من بوليساريو، عكس ذلك، أن تفتعل معاركا تدفع المغرب إما إلا اعتبار الجزائر مسؤولة عنها، ومن ثم توريطه في ردود عسكرية يسوغ للجزائر اعتبارها عدوانا، أو دفعه إلى اشتباك سياسي ودبلوماسي واسع معها كأن يتهمها بشن هجمات عسكرية ضده، ويبادر إلى ردود فعل تجعلها تلعب مجددا دور الضحية بعدما فشلت كل أساليب جر الرباط إلى ذلك الهدف عبر التحرشات الدبلوماسية المتصابية.

لقد بات من الواضح ان بوصلة الجزائر مفقودة في هذا التصعيد الأحادي الجانب، والذي يلبس تارة لبوس البحث عن مكان في معادلات اختبار القوة في المنطقة، وكأنه استجداء للامريكيين كي يلقوا بالا للطموحات الجوفاء لحاكمي المرادية، وتارة أخرى يظهر التصعيد بمظهر محاولة الضغط على التحالف الأمريكي المغربي الإسرائيلي عبر فتح الأبواب أمام طهران، دونما الانتباه إلى أن الجزائر والحالة هذه ستتورط إن بقيت سائرة في هذا الاتجاه داخل أوحال

الطموح الإيراني ذي التاريخ الطويل في ترويض الحركات الإرهابية ذات الخلفية السنية، ولن يستعصي عليها تسريع وتيرة انتقال بوليساريو إلى تنظيم ارهابي تحتاجه في عربذاتها داخل فضاءات غرب إفريقيا وشمالها، وكذا تجربتها في استعمال القضية الفلسطينية والأنظمة التي تبالغ في التشدق بشعارات القومية العربية، لتكون النتجية هي تحول الجزائر إلى مدار للفوضى ينتعش داخله المشروع المنكفئ الذي ما عادت البنيات الاجتماعية والسياسية في دول المشرق العربي تسمح بتمدده.